هند أَبــو الشَّــعر ومسيـــــرة «البَيان»

د. محمَّد محمود الدُّروبيّ *

كأَعْمق ما يكونُ التّناصّ، وأَجلى ما يكونُ التَّعالق، تَناغمَ اسمُ هند أَبو الشَّعر مع مجلَّة «البَيان» تَناغُمًا ممزُوجًا بسنواتِ الكدِّ والجدِّ والشَّدّ، والحفر في قِيْعَةٍ ليست بذات ماءٍ وزرع؛ إذ تَواضعتِ الإمكاناتُ التي كان حَريًّا أَن تُستجمعَ لتأسيس مجلَّةٍ ثقافيَّةٍ حضاريَّةٍ تُحرِّضُ العقل والوجدان، وتَسْتدركُ ما رثَّ من حَبلِ الحرفِ العربيّ، لكن العزيمةَ الواثقةَ قَهَرَتْ كُلَّ العَقَبات التي اكْتَنَدتِ الطَّريق، فكانت هند، وكانت «البَيان»، صوتين يَسِيْران على وَقْعٍ واحد، عَبَقًا وأَصالة، تَميُّزًا وفَرادة، تَوازنًا بين آفاقِ الإبداع ومُنْجزِ البحثِ العِلْميّ.

كانت الرِّحلةُ منذُ رُبْع قرن، وكانت هند أَبو الشَّعـر أَبْرزَ امرأة أُرْدُنيَّة تَتَسنمُ منصبَ رئيسِ تحريرِ مجلَّة ثقافيَّة تكتـــرثُ بالفعـــلِ

* أُستاذ اللغة العربيَّة وآدابها ـ جامعة آل البيت.

الثَّقافيِّ والأَدبيِّ والفكريِّ الرَّصين، وكان المنبعُ في جامعة آل البَيْت، والمصبُّ في ضِفافِ الثَّقافةِ والفِكْرِ حَيْثُما كانا، وفي الجامعةِ تَدفَّق حِبْرُ هند أَبو الشَّعر، فأَنْفَقت أَثْمنَ عُقُودِ عُمرها الأَكاديميّ، أُسْتاذةً في قِسْمِ التّاريخ، ثُمَّ عميدةً لكُلِّيَّةِ الآداب، سَنَواتٌ مملوءةٌ بالعملِ والإنجازِ والبَصَماتِ التي تُشْبِهُ الوشمَ الغائرِ في ظاهرِ اليد، لكن ارتباط هند بمَجَلَّة «البَيان» شكَّلَ السِّلسلةَ المتينةَ غيرَ المُنْجَذِمَة بحال؛ إذ أَمْسكتْ هند بحَبْلِ «البَيان» مُنذ وِلادتها، ولم تُفرِّط بعُراه إلى أَن غادرتِ الجامعة، عِشْرُون عامًا لم تغب «البَيان» بحُضُورِ هند، على الرُغْم مما أَصاب الجامعةَ من تغيُّراتِ الإدارة، وذهابِ الرُّؤساء ومجيئهم، ظلَّت «البَيان» هي «البَيان»، رُؤيةً ورِسالةً ومَنْهجًا وهَدَفًا، وبَقِيتْ هند أَبو الشَّعر تَحْمِلُ هُمُومَ تَحْرِيْرِها، ونَشْرِها على الملأ، قابضةً على عَهْدِ الوفاء والصَّفاء لكل المُلتفِّيْنَ حولَ رايةِ الفِكْرِ والثَّقافة والإبداع، على الرُغْم من أَنف العَيا الذي أَصابَ النُّفوس، وأَضْمرَ الأَرْواح، وأَزْهَقَ الأَفكار، وعلى رُغْم الجَلِيْدِ الذي ضَرَبَ عالمَ العلاقاتِ الحَمِيْمَة، كما تقولُ ضَيْفتُنا المُكرَّمة.

وعلى مَدار هذيْنِ العَقْدين، تَرادفتْ أَعدادُ «البَيان»، وفاضَتْ دَواةُ الجامعةُ لتروي حُقُولَ النَّفس، وامتلأت القَناديلُ حُرُوفًا وسُطُورًا وكلمات، وحملت «البَيان» إلى فَضاءِ الثَّقافةِ الأُرْدُنيَّةِ والعربيَّةِ والعالميَّةِ مَلفّاتها النّابضةَ بكُلِّ ما هو جديد، وأَنارت السَّبيلَ، بدِراساتها المُعمَّقةِ وحواراتها الباذِخَة، وإبداعاتها المُحلِّقة، وتَرْجماتها الثَّرة، ولوحاتها الفنيَّة الزاهية، وصُورِها التي تأَسرُ النّاظرين، وكل ما كان في زَواياها وباباتها الفنيَّة والأَدبيَّة والفكريَّة من ذاكرةِ الوطن وشُرفاتِ الرُّوح، وعَيْنِ الصُّورَة، وأَزهارِ «البَيان» ونَفْحِ طِيْبها، وغيرها وغيرها.

كانت مجلَّةُ «البَيان» تشغلُ جَناحًا صَغِيْرًا مُتواضعًا، كل ما فيه كان مُتواضعًا بحَقٍّ، يعمل فيه مُوظفٌ واحد، لكن هند أَبو الشَّعر اسْتطاعَتْ أَن تحولَ هذا التَّواضُعَ المُحْدِقَ إلى إنْجازٍ

مُبْهج، وبمُكْنَةٍ جبّارة، اسْتطاعت ضَيْفتُنا أن تَسْتثمرَ كُلَّ الطّاقاتِ الخَلّاقة، وشَبَكَةَ العلاقات الثقافيَّة والعلميَّة والشخصيَّة الواسعة لكَسْرِ الطَّوق، وتقديم مجلَّةٍ ذات سَمْتٍ راقٍ، وكان يسندُها بعضُ الرِّفاقِ في قِسْمي اللُّغة العَرَبيَّة والتّاريخ، فَضْلًا عن بعض الفَنانينَ والفَنيينَ في عِمادة شُؤونِ الطَّلبة، ومَتْحَف سَمَرقند، والمطبعةِ الهاشميَّة، فَتَناسلت الأَعدادُ بحُلَّتها الزّاهية، المائِرَة بأَلوانها ولَوْحاتِها وخُطُوطِها وصُورها، فضلًا عَمّا كان يختزنهُ المضمُونُ من موادَّ راقية تُخاطبُ العقلَ والوجدانَ في آن.

لم تكن مجلَّةُ «البَيان» مجلّةً بالمعنى المعروفِ للقُرّاء، لكنها أَمْستْ حاضِنَةَ الفِكْرِ والإبداع لعددٍ وافرٍ من أَربابِ العِلْم والفِكْرِ والأَدبِ والفنِّ، الذين زَهَت صَفَحاتُها بمِدادِ أَقْلامِهِم، ولم تكن المَجَلَّةُ تنتظرُ حتى تَفِدَ إليها أَفواجُ المَقالاتِ والإبداعاتِ والمُشاركات، لكنها كانت ـ بتَدْبيْرِ رئيسةِ تَحْريرِها ـ تسعى، بِفَضْلِ وعي واستنارةٍ، من أَجل إنتاج مَوادِّ المَجلَّة، وتحريك الطّاقات البحثيَّة للمُشاركةِ في صِناعةِ مَلفّاتها الرَّئيسة، وإِثارة كَوامنِ الكِتابةِ والإبداعِ المُتَلبِّدَيْنِ بين الحَنايا.

ولستُ مُغاليًا ـ البتة ـ إذا قُلتُ إن شطرًا من الفِعْلِ الثَّقافيِّ في جامعةِ آل البَيْت ولَّدتُهُ مجلَّةُ «البَيان»، بِما كانت تُنظِّمُهُ من سَلاسلِ المُلْتقياتِ والمواسمِ الثَّقافيَّةِ، التي كانت مَجْمعًا أَنِيْسًا للشّادِيْنَ والمُتأَدبِيْنَ والمُتَفكِّريْن من داخلِ الوطنِ وخارجِه، ولَنا أَن نذكرَ منها على سَبيلِ المثال: مُلْتقى الاسْتِشْراق، ومُلْتقى الحركة الأَدبيَّة والثقافيَّة والفكريَّة في اليمن، ومُلْتقى الحركة الأَدبيَّة والثقافيَّة والفكريَّة في الجزائر، ومُلْتقى الرِّواية على مَشارفِ القَرْنِ العِشْرين، فَضْلًا عن المُلْتقياتِ التي أَنارتْ سِيَرَ بعضِ الرّاحلينَ الكِبار، كمُلْتقى الشّاعر الأُردنيِّ عَرار، ومُلْتقى العَلّامة السعُودي حَمَد الجاسر، ومُلْتقى الشّاعر الرُّوسيّ بُوشكين، وغيرها.

كانت هند، بِطَبيعَتِها المُتناسِقَة، تَحْرَصُ على مُتابعةِ كُلِّ ما يُهِمُّ مَجلَّتها، تسعى في سَبيْلِ

اسْتِقطابِ الأَقلام الرَّصينة، وتُشَجِّعُ الأَقلامَ الواعِدَة، وتَبْذلُ جُهدًا كبيرًا في تخيُّرِ الموادِّ وترتيبها، وتُعْنى بِتَدْقيقِها وتخليصِها من الهَنات، وكان اهْتِمامُها يَتَعدّى ذلك إلى أَدَقِّ التَّفصيلاتِ الفنيَّة، كالغِلاف والرُّسُومات والصُّور ولوحاتِ الخطِّ العربيّ، فَضْلًا عن تَدْبيج الافْتتاحيّاتِ العامرةِ بِمَعانِيْها ومَبانِيْها، السّامِقَةِ بأَفْكارِها وأَنْظارِها، وكانت العادةُ الجميلةُ القارَّةُ أَن تُجري هند حِواراتِ الأَعدادِ بنفسها، وتسعى بكُلِّ طاقةٍ إلى تأمِيْنِ الموادِّ الجَدِيْدةِ التي تسمُو بمَعارجِ المجلَّةِ إلى دَوائرِ المُبْهِجِ، الذي يَحِقُّ لنا أَن نُفاخرَ به.

وإخال أَيُّها السّادةُ الفُضلاءُ، أَنَّ الإطلالةَ على شَخْصيَّةِ هند أَبو الشَّعر لا تتسنى بِمَعْزِلٍ عن التَّبَصُّر في تَجْربتِها في إدارةِ مجلَّة «البَيان»، فَهِيَ في نَظَري التَّجربةُ الأَعْمقُ التي خاضتها ضَيْفتُنا في إدارةِ الفِعْل الثَّقافيِّ المُثمر، وهي التَّجربَةُ الأَثْرى التي يَحْضرُ معها اسمُ هند أَبو الشَّعر، ولا أَحْسَبُ سَيْفَ الوَقْتِ المُسلَّطَ على رِقابنا يُؤذنُ بالغَوصِ عَلى مَفاصِلِ أُخْرى من هذه التَّجربة الرّائدة ومَحطّاتها الغَنِيَّة.

وبعدُ، فلشدَّ ما يُؤسفني أَيُّها الأَعزاءُ أَن أَرْوي إليكم أَنَّ مجلَّة «البَيان» التي ارتبطتْ بهند أَبو الشَّعر، ومَلَكتْ عليها نفسَها ومشاعرَها واهْتمامَها، قد تَوارتْ عن الأَنظارِ منذُ سَنَواتٍ قليلة، عندما أَصْدَرَ الزَّمانُ الجائرُ حُكْمَهُ بِمُغادَرةِ هند أَبو الشَّعر الجامِعَة، وشعرنا ـ نحنَ الزُّملاءَ القريبينَ من هند ـ بفراغٍ كبيرٍ جَرَّه هذا الرَّحيل؛ إذ فَقَدتْ كُلِيَّةُ الآداب ـ أُمُّ الكُلِّيّاتِ في الجامعة ـ عَلمًا مُؤسِّسًا من أَعلامِها الكِبار، وخَسرتِ الجامعةُ وَجْهًا ثَقافيًّا مُميزًا، وأَمّا مَجلَّتنا التي يَروقُني أن أَصِفَها بِمَحْبَرَةِ الجامعة، فقد نَكَّست راياتها، وطوَّحَ العِيُّ بِبيانها، وضَرَبَ الجَفاف رُواقَهُ على الأَقْلام والشِّفاهِ من جَدِيْد، واضْطَربتْ ذاكِرَةُ اللَّون، وتأَوَّهتْ ذاكِرَةُ الوَرَق، وأَصاب حَراكَ الثَّقافةِ في الجامعةِ ثَلْمٌ مُوْجِع؛ إذ هدأَتِ الرِّياحُ اللَّيْنَة، ونَضبَ الزَّيت، وانْطفأت ذُبالةُ المِصْباح، ولم تعد شَهَرزادُ تَشْتَهِي الكَلام.

تَحِيّةً وافيةً لهند أَبو الشَّعر، مِنْ رِفاقِها في جامعةِ آل البَيْت، ومِنْ كُلِّ شُداةِ العِلْم والثَّقافةِ والمَعْرفَة، تَحِيّةً ما الفراتُ بأَعْذبَ منها وهو أَزرقُ سَلْسال، وشُكرًا لها على ما قَدَّمَتْ حتى لا ينتهي الشُّكر.